مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767 | المجلد 10 / العـدد: 01 (2024)، ص 500- 511

براديغم السيطرة وتطوراته التاريخية

Paradigm of control and its historical developments

عبد الله مصطفى [1*]، يحياوي عبد القادر [2]

[1] جامعة البليدة 2 لونيسي علي (الجزائر)، musabdellah53@gmail.com

[2] جامعة البليدة 2 لونيسي علي (الجزائر)، yah-aek@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/08/19   تاريخ القبول: 2024/02/27   تاريخ النشر: 2024/06/01

ملخص:

لقد عبر الإنسان عبر التاريخ عن استعداد فطري للسيطرة و الهيمنة على كل ما حاذاه و سعى إلى الإمساك على عالم الأشياء و تسخيرها لخدمته بكل ما أوتي من الوسائل ، غير أن هذه الهيمنة لم تقف عند حدود الطبيعة المادية فحسب و إنما تجاوزتها إلى فرض مقولات السيطرة على الإنسان ذاته موظفا في ذلك العلم و التقنية كأدوات فعالة تسيرها قوانين العلة و المعلول التي طالما حكمت الطبيعة.

و نهدف في هذه الورقة البحثية إلى توضيح المسارات التي اتخذتها الهيمنة والسيطرة من الطبيعة المادية إلى الإنسان لاعتباره عنصر من عناصرها لذا ينبغي إخضاعه إلى وإلحاقه بنواميس الطبيعة ليسهل التحكم به .معتمدين في ذلك على المنهج التحليلي المقارن لتحليل أساليب وآليات السيطرة ومقارنة المراحل التي كان فيها الإنسان خاضعا لقرارات الطبيعة وقوانينها الى المراحل التي سيطر فيها على مختلف عناصرها

كلمات مفتاحية:السيطرة.،الطبيعة.،الإنسان.،المجتمع.، التخطيط.

Abstract:

Throughout history, man has expressed an innate willingness to control and dominate everything that surrounds him, and he has sought to seize the world of things and harness it to serve him by all available means. However, this domination did not stop at the limits of material nature only, but rather went beyond it to impose the categories of control over Man himself is employed in that science and technology as effective tools that are guided by the laws of cause and effect that have always governed nature.

In this paper, we aim to clarify the paths taken by domination and control from material nature to man because he is one of its elements, so he should be subjected to and attached to the laws of nature in order to facilitate his control. Relying on the analytical

comparative approach to analyze the methods, methods and mechanisms of control and Comparing the stages in which man was subject to the decisions of nature and its laws to the stages in which he controlled its various elements

Keywords: contro ; natur ; man ; society ; planning.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إن الجشع المتنامي للطبيعة البشرية من جهة و غرور العقل في إمكانية بلوغ المطلق في مسيرة البحث اللامحدود لبلوغ الكمال من جهة ثانية أفرز نوعا من العدوانية التي أصبحت تمارسها الذات على كل ما حاذاها متخذة من الطبيعة وسيلة لفرض سيطرتها حتى أصبحت لا تتنفس إلا الموت و لا تتحدث إلا بلغة العدد، فأخضعت الطبيعة إلى الجلاد الذي لا يبالي ابتغاء إرضاء الآلة، غير أن هذه السيطرة العنكبوتية لحقت صانع الآلة حتى أصبح موضوعا للسيطرة. هذا هو التفكير العقلاني و قد سادته التقنية وأذهلته هالة التطور و نهدف من هذا البحث إلى توضيح الانتقالات والمسارات التي اتخذتها السيطرة من استغلال عناصر الطبيعة إلى الإنسان معتمدين في ذلك على المنهج التحليلي المقارن. فكيف انتقلت السيطرة من الطبيعة إلى الإنسان؟ و ما هي المسارات التي اتخذتها في ذلك؟

2. علاقة الإنسان البدائي بالطبيعة

إن علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة قديمة قدم تاريخ البشرية، فلا فرق بين وجود الإنسان ووجوده في الطبيعة، فالاحتكاك الدائم هو السمة المميزة لهما، غير أن هذا الاحتكاك يولد الكثير من الاستفهامات ويضعنا موضع المساءلة في حقيقة العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة أو قل الجزء بكله، هذا الجزء الذي طالما سلم قدره للطبيعة ومصيره لقراراتها و مرجعيته لمظاهرها وظواهرها، حاله حال الأسير الذي ليس عليه إلى الخضوع والطاعة، أضحى و قد صقلته الحضارة وشحذته التجربة و غمرته العظمة والكبرياء وفتنه التطور المادي حتى ظن أنه ذلك الجزء الذي لا يفسر الكل إلا من خلاله وذلك العقل الذي لا يتحرك الجسد إلا بإرادته فهل لهذا العقل المشروعية في فرض السيطرة على عالم الأشياء كما له الشرعية في القبض على عالم الأفكار؟

و كيف تطورت علاقته بالطبيعة؟ و هل مكنته المادة التي أمدته بها الطبيعة من الاعتراف بجميلها أم أن طغيان المادة قد أنساه ماهيتها ؟وهل أوقفه هاجس التطور على عالم الأشياء أم أنه طال عالم البشر ؟

إن ضعف الكائن البشري فرض عليه الإقرار بجميل صنيع الطبيعة كيف لا و هو أحوج الكائنات إليها، فقد اعتبر مظاهرها محل عظمة ، و أحوالها محل رغبة و رهبة يقدم لها القرابين ساعيا إلى نيل الرضا من خلال التعاويذ و السحر و الصلاة و الدعاء ، فكان التأليه خلاصة الاعتراف،فقد ألّه الشمس و النجوم كما ألّه المروج و البحار و الأرض والجبال وكانت التفسيرات الميتولوجية هي الحل لكل الألغاز،والقرابين مسعى لراحة كل النفوس ،هذا حال الإنسان البدائي و البيئة .

فكان خلاصه في الخضوع لها ونعمته في الدعاء لاستدرار نعمها و بؤسه في سخطها فكانت "العواطف الفطرية التي تنشأ عن اهتمام الإنسان بمجرى حوادث الحياة و الآمال و المخاوف التي هي التربة التي تنبت فيها العقيدة الدينية،هي وجدانات فطرية في طبيعة الإنسان " (محمود، (د.ت)، صفحة 163)

3. علاقة اليونان بالطبيعة :

أما البدايات الأولى للفلسفة اليونانية فقد عبرت فيها الآلهة عن مظهر من مظاهر الطبيعة كالليل و الظلام و البحر و النور و الخمر و غيرها ولم تختلف في نظرتها العامة عن الحضارات الشرقية القديمة و" يذكر هوبز في تفصيل مسهب أنواع الأرواح و الآلهة الموجودة في كل مكان ... في الميتولوجيا اليونانية : فالسهول مليئة بروح الإله بان Pan(وهو إله الراعي والرعاة في الميتولوجيا اليونانية)و الساطيرSatyr (إله الغابات عند اليونان) والحوريات Nymphs(إلهة ثانوية في الميتولوجيا القديمة للمروج الخضراء المليئة بالتريتونTritons إلهة البحر عند اليونان وهو جسم رجل مع ذيل سمكة... " (إمام، 1985، صفحة 407)

أما الفلسفة اليونانية قبل سقراطية كانت مع سؤال الفلاسفة الطبيعيين الذين بحثوا في ماهية الطبيعة وأصلها و المادة الأولى التي يتكون منها العالم الطبيعي مع طاليس

الذي قال بالماء، إلى انكسيماندرس الذي فسره باللانهائي أو الأوبيرون إلى أنكسيمانس الذي قال بالهواء ، هذا عن المدرسة الملطية التي رفضت التفسيرات الميتولوجية للكون التي عجت بالتفسيرات اللاهوتية كإله الحروب و إله الجمال و إله الشمس و القمر، ليفسره هيراقليدس بالنار على اعتبار أنها تحرق والاحتراق تغير و كل الأشياء في العالم أحداث لا تتوقف عن التغير ، ولتغير صراع بين الأضداد بين الحياة و الموت و الصحة والمرض ...

أما مع الفيثاغوريين لم يعد البحث عن نظام الطبيعة بل عن بنائها في الشكل الهندسي لتستحيل مادة الطبيعة إلى جملة من الأشكال الهندسية و الأعداد التي اعتبرت بمثابة آلهة تقدم لها القرابين و تقام لها الصلاة و الدعاء حيث" كان تلاميذ فيثاغورس يقيمون الصلاة للأعداد السحرية ويخاطبون العدد أربعة بقولهم : باركنا أيها العدد السماوي الذي خلق الآلهة و الناس" (غنيمة، (د.ت)، صفحة 15)

حتى أنهم أعطوا الأعداد ماهياتا و أجناسا فالأعداد الزوجية مؤنثة والفردية مذكرة و العدد واحد هو أصلها، و بهذا فسروا الظواهر الطبيعية و البشرية على حد سواء فالعدد واحد رمزا للتعقل و اثنان رمزا للرأي و ثلاثة رمزا للقدرة الجنسية و العدد أربعة رمزا للعدل والعدد خمسة رمزا للزواج ... " (غنيمة، (د.ت)، صفحة 15)و أسرار الكون استحالت إلى أشكال هندسية فسر النار في شكل هرم و سر السماوات في المجسم ذو الاثنى عشر وجها ...

أما المدرسة الذرية فقد كانت مع أمبادوقليدس و ديموقريطس و أنكساغوراس الذين تأثروا بالمدرسة الايلية و الفيثاغورية، فقد جمع أمبادوقليدس بين العناصر الأربعة الماء والهواء والنار والتراب وقد أكد أن كل شيء في الكون يتشكل منها بنسب متفاوتة تربط بينهما قوتان متضادتان هما الحب والنفور.

و قد فسر ديموقدردس الوجود بالذرة و هي الجزء البسيط غير القابل للتجزئة الذي ترجع إليه كل الموجودات،و فسر الكون بالضرورة الآلية المنبثقة عن الذرات والخلاء والحركة هذه الأخيرة التي تنشأ عنها الأشياء و العوالم وفقا لحتمية طبيعية لا غائية فيها، ليتحول السؤال إلى البحث عن سر الانسجام و النظام والتناغم الموجود في الطبيعة مع أنكساغوراس الذي فسرها بالعقل الذي يبث الحركة في الأشياء وينظمها، وهذا يعكس حال الإعجاب بعظمتها و بالغاية النهائية التي تنتهي إليها وهي بلوغ الوحدة و الكلية .

و بين أفلاطون من خلال قسمته الثنائية للعالم زيف الطبيعة باعتبارها عالم من الأشباح والظلال التي لا تتوقف عن التغير و اعتبر مظاهرها و صورها مجرد نظائر و صور تحاكي عالم الحقائق الخالدة التي تحوز على الجمال و الثبات في ذاته،مع هذا سعى إلى ربط العالم السفلي بالعالم العلوي من خلال التذكر و مبدأ المشاركة .

ليفسر أرسطو الطبيعة تفسيرا سببيا وغائيا في نفس الوقت، فالطبيعة عنده تعمل لغاية و جميع العلل تعمل لغايات انطلاقا من المادة والصورة و تقسيمه للعلل إلى أربعة: العلة المادية والصورية و الفاعلة والغائية، كما أرجعها إلى العلة الأولى أو علة العلل و هي المحرك الذي لا يتحرك أو الله باعتباره العلة الأخيرة للطبيعة .

و عموما قد سعت الفلسفة اليونانية إلى بلوغ الوحدة و جمع عناصر الكوسموس في وحدة مذهلة تعبر عن الانسجام و التكامل بين عناصره و هذا ما عبر عنه الفن والميتولوجيا التي جعلت الطبيعة و الإنسان واللاهوت في وفاق دائم يشكل فيه الإنسان المقدم وبقية العناصر التالي .

4.دلالة الطبيعة في العصر الإسلامي و الوسيط:

أما الإسلام فقد وجه النظر إلى مظاهر الطبيعة من جهة دلالتها على قدرة و جلالة المبدع في صناعته التي لا تخلوا من النظام و الانسجام و الاطراد و بهذا كانت الطبيعة آية للتدبر و التأمل في حكمة الله المطلقة،و في الإسلام دعوة صريحة إلى ذلك و يقرر الإسلام حدود علاقة النظام الطبيعي بالله "الخالق" المبدع،فلا يستطيع أن يُبقى على النظام غير مبدعه ، فإذا كنا نسمي هذا النظام بالقانون فهو بالمفهوم الديني الإسلامي تجل لعلم الله و حكمته فبينما يهدف العلم إلى البحث في الاطراد و النظام و الانسجام لبلوغ الوحدة في الوجود، و هدف الدين هو بلوغ الوحدة من المتعدد في الوجود، فإنهما يسيران في مسار واحد و قد أكد أبو الوليد ابن رشد أنه كلما كانت المعرفة بالصنعة أتم كانت المعرفة بالصانع أكمل

فالفكر الطبيعي في العصر الإسلامي استمد قيمته من قيمة الدين باعتباره تجل لقيمة صانعه.

وقد اصطبغ العصر الوسيط بصبغة دينية امتزجت فيها ألوان من الطقوس والشعائر وإحياء التراث القديم و الثورة على كل ما هو حديث فكانت الرجعية ما ميّزه وهذا ما قضى على النظرة العضوية والحيوية من عالم الطبيعة ليحل محلها التفسيرات

التيولوجية و أضحت الطبيعة جمادا تحركه قوة خفية عمت الوجود بقدرتها، فأفل عقل الطبيعة ليحل محله الإرادة الإلهية حتى أصبح شعار هذا العصر لقد " رأت مشيئة الله الخيرة في ذاتها أن ..." فلم تفسر الظواهر الطبيعية إلا بإشراك إرادة الآلهة التي لم يكن من الجائز الاعتراض على قراراتها أو مواجهتها بل الخضوع لها باعتبارها قرارات العدالة الإلهية.

وكان غرض الفلسفة في هذه المرحلة تأكيد العقائد الإيمانية، فإله المسيحية متجل بذاته بغض النظر عن كل الموجودات التي ليست سوى نماذج لصنعه و تعبير عن قدرته و في هذا يخاطب المسيح البشر بقوله:"اطلبوا أولا ملكوت الله و كل ما سواه يعطى لكم بالتبعية"(متى) هذا ما ميّز الفلسفة المسيحية في عصر آباء الكنيسة منذ ظهور المسيحية حتى القرن التاسع للميلاد أو العصر المدرسي الذي امتد من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر.

5. العصر الحديث و بداية الهيمنة

و لم يكن عصر النهضة أكثر احتشاما في نظرته للطبيعة من سابقه فقد شبه الطبيعة بالآلة التي لا عقل فيها فهي من صنع الإرادة الإلهية، و لا فرق بينها و بين الآلات التي يصنعها البشر،فهذه النظرة التشيئية للطبيعة أفقدتها انسجامها التلقائي و سحرها العذري و جمالها الخلاب وكانت بداية الهوة والقطيعة بينها وبين الإنسان.

و التي زادها العصر الحديث اتساعا بداية من نشأة العلم الحديث مع فرانسيس بيكون بمنهجه التجريبي الذي حول المعرفة من غاية في ذاتها إلى مجرد وسيلة لتحقيق المنفعة و تحسين حياة البشر فضبطت جداوله حدود الطبيعة من خلال ممارسة السلطة على عالم الأشياء وفرض السيطرة عليها و التحكم في مسارها انطلاقا من التعداد البسيط.

و قد عمق ديكارت مفهوم الازدواجية في علاقة الإنسان بالطبيعة من خلال وضعه للذات في مقابل الموضوع و الكوجيتو في مقابل عالم الأشياء "وتقوم دراسة الطبيعة في أساسها و منهجها على اعتبار الموجودات راجعة إلى الامتداد والحركة، أي على اعتبارها اعتبارا آليا محضا. و يؤدي ذلك الاعتبار إلى معرفة تفصيلية منظمة للظواهر الطبيعية،كما تؤدي تلك المعرفة إلى استخدام الظواهر بما فيها الظواهر الإنسانية، وذلك في سبيل السيادة على العالم و على الإنسان أيضا " (بلدي، (د.ت)، صفحة 149)

فعزلت الطبيعة بما تحمله من جمال و سحر و نظام و انسجام و باتت قوة بلا فعل و جماد بلا حركة وجسد بلا روح كيف لا ؟ و شعاره " أن نجعل أنفسنا سادة و مسخرين للطبيعة " هذا ما سرح به في كتابه "**مقال في الطريقة** " يمكننا أن نجد بدلا من الفلسفة النظرية التي تعلم في المدارس فلسفة عملية إذا عرفنا بواسطتها ما النار و الماء و الهواء و الكواكب و السماوات و سائر الأجسام الأخرى التي تحيط بنا من قوة و أفعال ، معرفة متميزة ، كما نعرف آلات صناعنا، استطعنا أن نستعملها بالطريقة نفسها في جميع ما تصلح له من الأعمال، و نجعل أنفسنا بذلك سادة الطبيعة و مالكيها " (ديكارت، 1991، صفحة 82) .

هذا و قد كتب للطبيعة أن تكتب بلغة رياضية مع نشأة العلم الحديث الذي أرسى دعائمه كوبرنيك خاصة في علم الفلك الذي عارض نظرية بطليموس في فكرة ثبات الأرض واعتبارها مركزا للكون ، و كبلر الذي استفاد من دراساته و أبحاثه الفلكية و التي قام بتصحيحها في الفيزياء الفلكية، و غاليليو الذي أكد على ضرورة ولوج كتاب الطبيعة القائم على لغة العدد و الشكل الهندسي و في هذا يرى أنه من المستحيل فهم أسرار الكون دون فهم تلك اللغة و حل رموزها فالكون مؤلفا تأليفا رياضيا و يتوقف فهمنا له على فهمنا لتركيبه الرياضي أكثر من فهمنا لما يقع أمام حواسنا من وقائع و ظواهر، وقد عارض غاليليو تفسير الطبيعة بإرجاعها إلى الذات بما تحمله من مقولات كيفية يضفي على الطبيعة مظاهر الجمالية والتحرر و الإنعتاق و التي تخرج مظاهرها من قبضة الشكل الهندسي و العدد " ولكني اعتقد بعدم وجود أي شيء في الأجسام الخارجية تثير فيها الطعوم والروائح و الأصوات ،بل الحجم و الشكل و الكمية ، والحركة البطيئة أو السريعة " (هامبشر، 1986، صفحة 33)

وقد وجه العلم الحديث انطلاقا من مبدأين " على المرء أن يعتمد على الملاحظة لا على السلطة عندما يضع القضايا و الفرضيات عن الطبيعة، ثانيا أن بالإمكان فهم عمليات الطبيعة فهما أفضل إذا عرضت في حدود رياضية ... وأن نفهم الطبيعة الفيزيقية المتمثلة في العلم بحدود خصائصها القابلة للقياس مباشرة فقط و هي الشكل والكمية والحركة " (هامبشر، 1986، صفحة 31).

لتمتد هذه النتائج امتدادا طبيعيا لنيوتن من خلال تفسيره لقوانين كبلر وإسقاطها على الظواهر الطبيعية في كتابه " المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية " سنة 1687 فعنوان الكتاب يوجد دلالة المضمون، فما كانت تعكسه الطبيعة من سحر يسمح للأحلام الطوباوية و المظاهر الرومانسية من الإنبجاس قد أفل حيث حدثت القطيعة بين فلسفة العلوم التي تهتم بالمناهج والقوانين و النظريات العلمية و علم الجمال الذي اختزل سحر الطبيعة في إطار التجربة الفنية والجمالية ليستحيل الانسجام و التكامل إلى تجربة ذاتية ترتبط بالذات دون التركيز على مفهوم الطبيعة باعتبارها مصدره.

بهذا اختفت المفاهيم الكيفية منها وأرغمت على الخضوع للقياس الكمي الذي كان بمثابة اتفاق غير معلن على أن ما هو محل اتفاق بين البشر هو ما يمكن صياغته رياضيا وفقا لمفاهيم الكتلة و الحجم والقوة و السرعة ...التي تقاس بلغة العدد، أما الكيفيات فهي تحيل إلى التفسيرات الذاتية " ... فهناك حاجة إلى منطق يرينا أشكال البرهان الرياضي مادام على المعرفة الطبيعية أن تأخذ شكل البرهان الرياضي قدر الإمكان، إذ ينبغي أن يكون العلم الطبيعي مجردا وعاما،ما أمكن ذلك،فلا يكترث للتمييزات الذاتية " (هامبشر، 1986، صفحة 10)

وهنا يظهر إقصاء فاعلية الطبيعة بحركاتها و سكناتها التي لم تعد تعني سوى الانصياع والرضوخ المطلق لقدرة العقل الذي يتملك كل شيء حتى أكثر الأشياء جلالة .

هذه النظرة الآلية للطبيعة التي تحكمها قوانين صارمة تعبر عن العلاقات الثابتة بين ظواهرها التي تقضي على كل أشكال الحرية في جو استاتيكي للميكانيكا الكلاسيكية التي جعلت العقل البشري هو المشرع لقوانين الطبيعة، مما انعكس على أفول التفسير الغائي لمظاهرها أمام التفسير الآلي حيث كممت بقوانين الرياضة و مسخت هويتها بلغة العدد " ويمكن تسمية القرن السابع عشر في تاريخ الفلسفة ب "عصر العقل " حقا، لأن معظم الفلاسفة العظام في ذلك العصر تقريبا قد حاولوا إدخال صرامة البرهان الرياضي في جميع ميادين المعرفة بما في ذلك الفلسفة نفسها " (هامبشر، 1986، صفحة 14).

و إذا كان عصر الأنوار يدعو إلى التجديد و القضاء على التقليد إلا أنه قد حافظ بل ثبت فكرة أساسية أكدت على محورية الإنسان في الكون منذ العصر الوسيط على اعتبار أن الله خلق الإنسان على صورته و أصبح الإنسان هو الغاية النهائية للطبيعة، هذا ما لخصه

كانط في كتابه عن الأنوار التي يعرفها على أنها " خروج الإنسان من حالة القصور الذي هو مسؤول عنه، و الذي يعني عجزه عن استعمال عقله دون إرشاد الغير، و أن المرء نفسه مسؤول عن حالة القصور هذه عندما يكون السبب في ذلك ليس نقصا في العقل بل نقصا في الحزم و الشجاعة في استعماله دون إرشاد الغير، تجرأ على أن تعرف، كن جريئا في استعمال عقلك أنت ، ذا شعار الأنوار " (كانط، 2005، صفحة 85).

6. السيطرة العنكبوتية على الإنسان المعاصر

كما بين أن الإنسان هو الكائن الوحيد على الأرض الذي يملك العقل و الفهم، و هو على يقين بأنه سيد الطبيعة بلا نزاع، و إذا نظرنا إلى الطبيعة باعتبارها نسقا غائيا متكاملا فقد ولد الإنسان لكي يكون الغاية النهائية لها وهذا ما أكده من قبل باروخ اسبينوزا الذي وحّد بين الله والطبيعة،وأكد على وجوب السيطرة على الطبيعة لبلوغ الحرية، و لما كان عقل الله هو قانون الطبيعة فإن الإنسان هو جزء من هذا النظام، و لا يتمثل الخير الأسمى إلا في معرفة الله أي معرفة الطبيعة والقوانين التي تحكمها، ففكرة الله هي النظام الضروري للكون و الشيء لا يفسر إلا من خلال الضرورة الكلية، و الحرية ليست سوى معرفة هذه الضرورة يقول في ذلك " كلما ازددنا علما ازددنا تحررا ".

و هذا ما عبر عنه ماكس فيبر بإزالة الجانب السحري عن العالم، فقد تحرر الإنسان من الأحكام المسبقة و من التصورات الكيفية و من التقديس المأثور للأفكار الساذجة، فهذا العصر هو عصر العقل المستنير الذي يفتح المنافذ أمام التجديد والتغيير في ظل التقنية و التطور العلمي، حيث أصبح مفهوم الإنسانية و مفهوم الإنتاج صنوين، فقيمة الإنسان تتحدد بما ينتجه أو يملكه أو على الأقل يمتلك الإمكانية لذلك، هذه المقاربة قد فرضتها العقلانية الأداتية التي تمجد التطور وتقدس الآلة التي جعلت مفهوم الإنسانية والمكننة في تماهٍ تام، فاستبدلت الروح بقدرة الجسد واستبدلت الإنسانية بقدرة العقل على التغيير في عالم الأشياء، حتى استحال كل القول إلى مادة والفكر إلى شكل و عدد و الوعي إلى السيطرة اللامحدودة على كل ما تقع عليه الحواس أو يرتسم في هوى الخيال .

غير أن الدراسات السيكولوجية ما فتئت تتطور في الزمن حتى جعلت الإنسان محورا لدراستها و انتقلت المفاهيم الكمية والمقولات الفيزيائية من الطبيعة إلى البشر فكممت انفعالاته وقدراته و أصبح موضوعا للسيطرة أمام تنامي العقلانية الأداتية انطلاقا من

المنعكسات الشرطية التي تحكمها المثيرات و الاستجابات الآلية واستنادا إلى علم النفس الحيواني بداية من دراسات بافلوف، لمعرفة الجوانب التي يمكن أن يشيّأ فيها الإنسان لكي يكون موضوعا للسيطرة .

و دعم ذلك الاستغلال الرأسمالي الذي سعى إلى السيطرة على عناصر الإنتاج بداية من الطبيعة وصولا إلى البشر مع تايلور و ألتن مايو في علم النفس الصناعي فهاجس التحكم و السيطرة بل الاستغلال لم يتوقف عند حدود الجسد بل بلغ مقصده إلى ما بين أضلاعه إلى الروح التي كان عليها أن تستجيب لتطلعات الآلة الإنتاجية و المصنع الكبير الذي يفرغها من مضامينها من الإنسانية و الأخلاقية و الكرامة ليستبدلها بمقولات الإنتاج و التطور و الربح السريع و الحافز المادي، لتظهر تداعياتها في الحربين العالميتن أين تحول العقل إلى اللاعقل وتحولت السعادة التي بشّر بها التنوير إلى بؤس و شقاء و تعاسة تعم الجميع " أعطت الإحيائية روحا للشيء، أما الانتماء للصناعة فقد روّح الإنسان إلى شيء" (أدورنو، 2006، صفحة 50) .

ولم تسلم الطبيعة حتى من التحليل النفسي حيث أعلن فرويد على وجوب التسامي بالعدوان البشري وغريزة الهدم بالتوجه إلى المجال الحيوي بعيدا عن الإنسان مساعدة للتقنية المسترشدة بالعلم بمهاجمة الطبيعة و إخضاعها لإرادته بدلا من ممارسة العدوان على الذات أو على الغير.

و هذا الطابع المتنامي للتقنية أفقر الطبيعة و خرب بنيتها و طمس هويتها إلى إسمنت مسلح وانتقل الجمال الذي طالما ميّزها إلى الآلة بعد أن افقدها عذريتها،فالمقولات الكيفية لم تعد تستجيب لمظاهر الطبيعة بعد أن انتقلت إلى البيت الجميل و السيارة الفخمة و التكنولوجيا المبهرة ، فاستحالت براءة الطبيعة إلى سخط وسخاؤها إلى قتر و نسيمها إلى جفاء .

فبعد الخراب الذي طال الطبيعة بأشكاله المتناقضة من خلال الانتفاع غير العقلاني بخيراتها، أو من خلال الحروب و ما تخلفه من دمار في ظل الجشع الرأسمالي الذي أنسى الإنسان ماهيته ،فالعقل هنا لم يعد يفكر كما يقول مارتن هيدغر، فقد تحولت علاقات الناس فيما بينهم إلى علاقات مسعورة لا تتنفس إلى الدماء و القتل والمادة أمام تنامي الخطاب الوضعي وايديولوجيته المهيمنة في الحقل الاجتماعي والثقافي والسياسي و

الاقتصادي، حيث بات هاجس الآلة، وهالة التطور تعصف بكل شيء في طريها حتى أكثر الأشياء قداسة قد أصبحت أحلاما طوباوية لا تمت للواقع بصلة فهذا ما وصفه إيدموند هوسرل بالأزمة في كتابه"أزمة العلوم الأوربية".

ففي ظل الأنظمة الشمولية التوليتارية أُخضع كل شيء للسيطرة العنكبوتية،التي لم تترك مجالا للصدفة ولا للتلقائية و بات كل شيء محسوبا ، وفقا لآليات معينة ، فالفن الذي طالما عبر عما يختلج الإنسان من مشاعر و ما يستهوي الإنسان من أحاسيس يسقط فيه صاحبه طموحاته أصبح اليوم وسيلة للصناعة الثقافية التي تسخر كل شيء لخدمة الآلة من خلال الإشهارات والأفلام التي تبدي ما يرغب الرأسمالي في ترويجه من منتجات و آلات وعروض الأزياء و المساحيق التجميلية التي لا تظهر قيمتها إلاّ من خلال تعرية جسد المرأة التي لم يعد جسدها ملكا لها بل ملكا للمؤسسات الإنتاجية التي تستغلها لترويج منتجاتها، وهنا فقدت أنوثتها في دور السينما لتعبر عن أدوار بطلاته شرسات، كما أخضعت اللغة في ظل البورجوازية إلى وسيلة تمنح المفاهيم السلبية والخطيرة دلالات و رموز تخفف من حدتها و وقعها على الإنسان مثل "ديكتاتورية البروليتاريا " و"حلف الناتو".

فقد غيرت الرأسمالية طباع البشر و قيمهم و قضت على كل أشكال التكافل والتعاون والطيبة " لقد صارت الرقة وكذلك الطيبة خطيئة، أما السيطرة و القهر فقد صارا فضيلة فكل الأشياء الجيدة كانت قديما أشياء سيئة و كل خطيئة أصيلة تحولت إلى فضيلة أصيلة " (أدورنو، 2006، صفحة 126).

فالعلاقات الاجتماعية قد انحلت و أضحى الإنسان شيئا قابلا للدراسة و القياس وهو ما عبر عنه جورج لوكاش في كتابه " التاريخ و الوعي الطبقي " ب "التشيئة" فهو جسد بلا روح لا ينظر إليه إلا بدرجة النفع الذي يحققه أو بما يملكه، فإذا كان الجسد سبيل الخلاص عند المسيحيين و كان عليه أن يتحمل مشقة الحياة لنيل السعادة الدائمة، وكان موضوع العقاب عند الجانحين لتحقيق خلاص الروح، فاليوم تعاقب الروح في الإصلاحيات و السجون وتحكم عليه بالموت البطيء بحجة الإصلاح النفسي و الاختبارات السيكولوجية المقننة ".

وبهذا يتم فرض المقولات الكمية على السلوك الإنساني و إخضاعه للقوانين الرياضية والقواعد القياسية حتى يتم التحكم فيه تحكما تاما وشاملا و في هذه الحالة يكون فاقدا

لحريته التي طالما أكد عليها الفلاسفة التنويريين (كانط، هيوم ...)" (بومنير، 2012، صفحة 27).

7. خاتمة:

و بهذا فقد تمت خيانة التنوير الذي طالما تبجّح و تباهى بقدرة العقل و بإمكانياته في تحقيق سعادة البشر بإخراجهم من حالة القصور والتخلف والظلمات إلى حال التمدن والتحضر والرفاهية،وإذا بهذه السعادة تنقلب إلى شقاء وبؤس كرسته البورجوازية على حساب الجنس البشري و على حساب الطبيعة، و هذا ما أدى إلى ظهور فلسفات وجودية تضع الذات وجها لوجه أمام الموضوع لتحدد ماهية الوجود لذاته أو الدازاين على حد تعبير هيدغر في بؤرة الصراع الذي خلفه الوجود الموضوعي و الذي قلص حريته في إنجاز مشروعه، كما نادت الفلسفات الروحانية والشخصانية بإعادة صياغة مفهوم الإنسان في ظل طغيان الجانب المادي على القيم الروحية والإنسانية،ليعاد النظر في علاقة الإنسان بالطبيعة انطلاقا من المنظمات الدولية والعالمية للمحافظة على البيئة.

8. قائمة المراجع:

1. أدورنو ,م .هـ .(2006) .(*جدل التنوير*) .ج .كتورة .Trad ,بيروت :دار الكتاب الجديد.
2. إمام ,إ.ع .(1985) .(*توماس هوبس فيلسوف العقلانية.*) الأزهر :دار الثقافة للنشر و التوزيع.
3. بلدي ,ن .(د.ت) .(*نوابغ الفكر الغربي ديكارت*) .مصر :دار المعارف.
4. بومنير ,ك .(2012) .(*قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت*) .الجزائر :مؤسسة كنوز الحكمة.
5. ديكارت ,ر .(1991) .(*مقال في الطريقة*) .ت .ج .صليبا .Trad ,الجزائر :دار موفم للنشر .
6. غنيمة ,ع .ا .(د.ت) .(*نحو فلسفة العلوم الطبيعية*) *سلسلة تبسيط العلوم* .مصر.
7. كانط ,إ .(2005) .(*ما هي الأنوار؟*) .ت .م .جماعة .Trad ,تونس :دار محمد علي للنشر.
8. متى ,ا .*36-6* .
9. محمود ,ز .(د.ت) .(*نوابغ الفكر الغربي .ديفيد هيوم.*) مصر :دار المعارف.
10. هامبشر ,س .(1986) .(*عصر العقل*) .ت .ن .الطحانTrad ., سوريا :دار الدوار للنشر و التوزيع.